تقسيم الشعر عند العرب وعند الفرنجة

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

قسم الباحثون الشعر العربى من حيث الأغراض المتنوعة التى يقصدها الشاعر ، أقساما كثيرة وفنونا متعددة ؛ فقد ذكر صاحب ديوان الحماسة أنها عشرة أنواع ، وابن أبى الاصبع أبلغها إلى ثمانية عشر وهى :

الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح ، والهجاء ، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والزهد ، والخمريات ، والمراثى ، والبشارة ، والتهانى ، والوعيد ، والتحذير . والملح ، والسؤال والجواب ؛ وزادوا عليها الزهريات ، والحكم والمجون . والحماسة .

وليس معنى هذا أن كل قصيدة يجمعها نوع واحد بل كثيراً ما تختلط الأنواع وتجتمع فى قصيدة واحدة .

وهذه الأنواع كلها فى نظر الشاعر غير العربى ، نوع واحد . يسمى الشعر الغنائى ؛ لأن مرجعه الى التأثير على النفس ، تأثير الموسيقى عليها .

أما أقسام الشعر عند الفرنجة فهى ثلاثة :

أولا — الشعر القصصى :

الشعر القصصى هو أقدم الأنواع عند الافرنج ، وهو عبارة عن سرد الوقائع والحوادث على سبيل القصة . ففيه ذكر للحروب والمحن . وما يبلى الأبطال فيها من بلاء ، وفيه ذكر للآلهة ، يستوحيهم الشاعر ما يريد أن يقول . ثم هو شعر اجتماعى تفنى فيه شخصية الشاعر فناء تاما فى الجماعة التى يصفها . فيفتن الشاعر فى وصف تلك الوقائع ويتلاعب فى إيراد تفاصيلها وسرد ظروفها ، كل ذلك فى نفس طويل ، وعدد من الأبيات تربى على الألف . مثل الالياذة لهوميروس والشهنامة للفردوسى

فالإلياذه هى قصة الحرب التى دامت عشرين عاما بين طروادة وممالك اليونان وهى تمثل الحضارة اليونانية القديمة أصدق تمثيل .

أما الشهنامة فهى ملحمة فارسية نظمها الحسن بن إسحق الفردوسى المتوفى سنة (٤١١ هـ) فى تاريخ الأكاسرة وأخبارهم ووصف الحرب التى اشتعلت بين أهل إيران وأهل طوران .

هذا النوع من الشعر — وهو الشعر القصصى أو شعر الملاحم كما أطلق عليه حديثا — لم يعرفه العرب بشروطه التى وضعها له الإفرنج ولهذا أسباب :

(١) أن العربى قليل النظر فى الأحوال العامة ، كثير الاهتمام بنفسه ومايعود على شخصه ، وذلك راجع إلى حالته المعيشية التى كانت تلجئه إلى هذا النوع من الحياة ، فسارت أفكاره فى طريق خاص ، اقتصر فيها على إظهار مايجول بخاطره والتعبير عما يتردد بين جوانحه مما هو مقصور على نفسه ومحصور فى شخصه .

(٢) إن الشعر القصصى يحتاج إلى شىء من التروى فى القول والدقة فى النظر والإمعان فى الفكر ويحتاج إلى شىء من المعانى الفلسفية الاجتماعية . وإلى التحليل والتطويل .

وطبيعة العقل العربى لا تنظر إلى الأشياء نظرة عامة شاملة . فيها تحليل وتدقيق بل الغالب عليه الفطرة والطبع من غير مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة .

(٣) إن الملحمة أو الشعر القصصى نوع من أنواع التاريخ الأدبى إذ هو تاريخ فى قالب شعرى وتدوين التاريخ وما يتطلبه من تحليل للأشخاص وربط للحوادث درجة لا تكون إلا مع قدر صالح من الحضارة . وهو مالم يتوافر عند عرب الجاهلية .

(٤) إن الملحمة من شروطها أن تتخللها الخوارق ، ويكون فيها يد للقوى العلوية ، وهذه خلة لم تتوافر للعرب ؛ فانهم مع قولهم بالجن والهواتف وماشاكلها كانوا قليلى الاهتمام بما وراء الطبيعة .

فلا سبيل إذن للزعم بوجود الشعر القصصى لعرب الجاهلية على نحو مايراد منه عند الافرنج .

وإنما للجاهليين نوع آخر من الشعر القصصى مما يعز وجوده فى سائر اللغات ، وذلك فى الملاحم القصيرة المقولة فى حوادث مخصوصة ؛ فالمعلقات مثلا نرى فيها من سرد الحوادث وتفصيل الوقائع ما يعد فى أعلى طبقات الشعر القصصى ،

فالعرب نظموا إذاً الشعر القصصى ، وإن لم يبلغوا به تلك المكانة الرفيعة التى بلغها هوميروس ، ومن حذا حذوه من فحول الشعراء عند الأمم .

ثانيا — الشعر الغنائى :

وهو ذلك النوع الذى يقصد منه الشاعر إظهار ما تكنه نفسه من العواطف وما يحسه قلبه من المشاعر ، وما يتمثل لخاطره من التصورات البديعة . والخيالات المبتكرة .

ولقد قضى اليونان بضعة قرون وليس عندهم غير الشعر القصصى الذى فيه أخبار آلهتهم وحروبها ، وعلاقاتها بالبشر ، حتى إذا تطورت الحضارة ، وتغيرت نظم الحياة ، وظهرت شخصية الأفراد ، وقويت حقوقهم أحس الشعراء أنفسهم وأنشئوا شعراً جديدا يصف نفوسهم وعواطفهم وشعورهم وحياتهم . وهذا الشعر هو الشعر الغنائى : فيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والرثاء وغير ذلك .

ثالثا — الشعر التمثيلى :

وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة ، فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم ، وينسب إلى كل منهم ما تحتمله الظروف ، وتدل عليه القرائن من الأفعال والأقوال ، فينطق كل منهم بلسان نفسه . وهذا النوع من الشعر يصف حياة الجماعات . كما هى أو كما كانت أو كما يجب أن تكون . وهو يعتمد على الحوار والحركة والغناء معا . وذلك لأن الشعراء رأوا أن الكلام وحده لا يكفى لتحريك العواطف ، وتمثيل الفضائل ، فعمدوا إلى تمثيلها للعيان بحوادث اخترعوها ، يؤدى سردها وتمثيلها إلى مغزى ما يريدون .

فالشعر التمثيلى يراد منه فى أصل وضعه تمثيل الوقائع ، التى ترمى إلى الموعظة أو الحكمة ، معتمداً على الحوار والحركة ، وعند القدماء يعتمد بنوع خاص على الغناء والرقص والموسيقى ، والشعر العربى لا يعرف أيضا هذا النوع ، بل ظل غنائيا . وتطور فى حدود النوع الغنائى . ولكن هذا لا ينقص منه ، ولا يضع من قدره ، ولا يقدم عليه الشعر الأجنبى . فليس يقاس الشعر بأنه اشتمل على هذا النوع ولم يشتمل على ذاك . وإنما يقاس الشعر بأنه أجاد أو لم يجد النوع الذى اشتمل عليه ؛ لأن لكل أمة منزعا ، ولكل شعب خيالا خاصا ، وطريقة خاصة فى التصور والإدراك والصناعة .

عبد الوهاب محمود
(٥ صحيفة دار العلوم)